الكتابة الدِّيوانية بين الإبداع العربي و التأثير الفارسي خلال العصر الأموي.

The Diwani writing between the Arab creativity and Presian influence during the Umayyade era.

طالبة الدكتوراه. إيمان حاج
الدكتور: عبد القادر خليف

قسم اللغة و الأدب العربي-جامعة العربي التبسي - تبسة (الجزائر)
مخبر الدراسات الإنسانية و الأدبية، جامعة تبسة.
imane.hadj@univ-tebessa.dz

تاريخ الإيداع: 2022/10/01 تاريخ القبول: 2022/10/20 تاريخ النشر: 2023/03/15

ملخص:

اهتم العرب بالكتابة مع بداية الإسلام، فكان أوَّل كتاب مدوَّن لهم القرآن الكريم لأغراض دينية بالدرجة الأولى، ثمَّ مجموعة رسائل كتبها الرسول صلى الله عليه و سلم غرضها الرئيسي أيضا ديني، لدعوة الأعاجم لدخول الدِّين الجديد، و كذلك لأغراض سياسية، بينه و بين ملوك الأمم المجاورة، و استمرت هذه الرسائل إلى غاية العصر الأموي، حيث اهتموا بها بشكل ملحوظ وخصصوا لها ديوانا، هذا الدِّيوان الذي تمَّ استلهامه من نظام الفرس. فظهر ما عُرف باسم الكتابة الدِّيوانية، لذلك تسعى هذه الدراسة إلى محاولة رصد أصل نشأة الكتابة الدِّيوانية، و تقفي ملامح تأثير الكُتَّاب الفرس في هذا النوع من الكتابة في العصر الأموي.

الكلمات المفتاحية: الكتابة؛ الدِّيوان؛ الرسائل؛ العصر الأموي؛ الكُتَّاب.

Abstract;

Arabs were interested in writing with the beginning of Islam. the first written book was the Holy Koran for primarily religious purposes, and then a series of letters written by the prophet for religious purposes as well, namely to invite Ajam to enter the new religion, as well as for political purposes between him and the kings of neighboring nations. These letters continued until the Umayyad era when they took a remarkable interest in them and created a special Diwan for them. This Diwan was taken from the

Persian system and hence the so-called Diwani writing appeared. This study, therefore, seeks to identify the origin of Diwani's writing and capture the features of Persian writers' influence on this type of writing in the Umayyad era.

Keywords: writing, Diwan, letters, Umayyad era, writers.

مقدمة:

شهدت الكتابة الدِّيوانية اهتماما ملحوظا منذ العصر الأموي بعدما أنشأ معاوية بن سفيان ديوانا خاصا لها تمَّ تسميته بديوان الرسائل، التي أصبح لها نظام خاص بها، تُكتب بعناصر يجب احترامها و بأسلوب و معايير يتقيد بها الكاتب المكلَّف من طرف الخليفة لكتابتها؛ إلاَّ أنَّ هذا لا يعني أنَّ هذا النوع من الكتابة ظهر إلاَّ في العصر الأموي، بل وُجدت الرسالة السياسية منذ عصر الرسول صلى الله عليه و سلم بعناصرها كاملة، إلاَّ أنَّها عُرفت بمصطلح الكتابة السياسية، لكون مصطلح الديوان لم يكن موجودا في عهده صلى الله عليه و سلم، و ظهر مع عمر بن الخطَّاب الذي أخذه عن دولة الفرس، و عليه أردنا من خلال هذه الدراسة الوقوف على تأثير الفرس في إنشاء هذا النوع من الكتابة، و دور كتابهم في تطويرها.

و هنا تبرز جملة من التساؤلات تفرض نفسها كإشكالية و هي: إلى أي مدى ساهم الفرس في إنشاء الكتابة الدِّيوانية؟ و كيف طوّر العرب الكتابة الدِّيوانية في العصر الأموي؟

وللإجابة على هذه التساؤلات المنهجية، وجب التكلم عن قضية الكتابة الديوانية وخصائصها، و عن قضية تأثير الكتاب الفرس في تطوير هذا النوع من الكتابة خلال العصر الأموي ، ثمَّ نشرع في دراسة نماذج من الكتابة الدِّيوانية المنجزة من طرف كُتَّاب الفرس و كُتَّاب عرب خلال ذلك العصر.

أمَّا منهجية البحث فقد اعتمدنا على المنهج التاريخي والاستعانة بآليات المقارنة والتحليل، حيث اعتمدنا على دراسة نماذج من الكتابة الدِّيوانية بين كتاب أصلهم فارسي، و كتاب أصلهم عربي، خلال العصر الأموي لرصد أوجه التشابه و الاختلاف بينهما، لأجل رصد مميزات الإبداع العربي، والتأثير الفارسي.

و يكتسي البحث أهمية كبرى، كونه دراسة تراثية لأشهر أنواع الكتابة التي عرفها العرب واهتموا بها و أبدعوا فيها، ووصلنا المئات منها، استطاع من خلالها الدارسون معرفة النظام

الإداري و السياسي للعرب في عصورهم الأولى، لذلك سنقف من خلال هذا الدراسة رصد أصلها و نشأتها و خصائصها، تحديدا خلال العصر الأموي.

و لما كانت الدراسة تدور حول الكتابة الديوانية بين الإبداع العربي والتأثير الفارسي، لنتمكن من معرفة تطور الكتابة الديوانية، هل ظهرت بسبب كتاب الفرس، أو وُجدت قبلهم، و هو باب واسع الأطراف و المداخل، اقتصرنا على العصر الأموي، لنستطيع تحديد مجموعة من نماذج الكتابة الدِّيوانية خلال هذا العصر، حتى يتسنَّى لنا النظر فيه و التدقيق، تحرزا من تفرع البحث و استرساله، و الإطالة فيه، لنجعله نتيجة و فائدة يحسن الرجوع إليها لكل ما يتصل بهذا الموضوع.

1- بدايات الكتابة عند العرب:

عرف العرب الكتابة منذ العصر الجاهلي، لأجل أغراض بينهم، في هذا الصدد قال الجاحظ (ت255هـ)في كتابه الحيوان :" لولا الخطوط لبطُلت العقود و الشروط و السِّجلات والصكاك، وكل إقطاع و كل إنفاق و كل أمان وكل عهد و كل عقد، و كل حلف، ولتعظيم ذلك والثِّقة به و الاستناد إليه كانوا يدْعون في الجاهلية من يكُتب لهم ذكر الحلف و الهدنة تعظيما للأمر و تبعيدا من النسيان"[1]. و عليه فالحاجة إلى الكتابة، ظهرت منذ العصر الجاهلي؛ إلاَّ أنَّها كانت منتشرة في المناطق المتحضرة فقط، ولم تنتشر في البادية لأسباب الترحال.

ثمَّ تطورت الكتابة مع ظهور الإسلام حيث أمر الرسول صلى الله عليه و سلم، بكتابة القرآن الكريم، و اتخذ لنفسه كُتَّابا لتدوين جميع آيات القرآن الكريم، ليتمكنوا من حفظه من اللحن و الضياع، كذلك كُتبت في عهده صلى الله عليه و سلم رسائل غرضها ديني و سياسي هذا ما أكدَّ عليه شوقي ضيف: "الكتابة أخذت تُستخدم استخداما واسعا لا في كتابة القرآن الكريم فحسب بل في كتابة كثير من شؤون المسلمين، وكان الرسول عليه السلام يكتُب كثيرا من عهود الأمان و من المعاهدات، كما كام يُكاتب الأمراء و الملوك من العرب و غيرهم يدعوهم إلى الإسلام"[2]. و هكذا تطورت الكتابة شيئا فشيئا، و انتقل العرب من أمة تحفظ سماعا إلى أمة تكتب و تُدوِّن وتقرأ. ومع مجيء العصر الأموي وتوسع الفتوحات الإسلامية، اختلط العرب مع غيرهم من الأمم المجاورة لهم كالفرس والروم والأقباط، و نتيجة للصراعات السياسية في ذلك العصر، كثُرت المكاتبات الرسمية بين الملوك، حتى أصبح لها كُتَّابا مختصين ، فاحتل الكاتب بذلك درجة الوزير في وقتنا الحالي، وظهر ما عُرف باسم الكتابة الدِّيوانية نسبة للديوان الذي نشأ مع عمر بن الخطاب رضي الله.

1-1- تعريف الكتابة:

الكِتابة، ظاهرة إنسانية عرفها الإنسان منذ أقدم عصوره، بدأت على شكل نقوش ورسوم على الحجارة، هكذا حتى ظهور أول خط في تاريخ البشرية الخط المسماري في العراق، ثمَّ تطور شيئا فشيئا، فانتقلت من كونها رسوما و نقوشا إلى الخط بالقلم على شكل حروف. حيث عرَّفها القلقشندي:" الكتابة في اللغة مصدر كتب يُقال كتبَ يكتُب كَتباً و كتاباً و كِتابةً و مكتبة و كِتبة فهو كاتب و معناها الجمع، يُقال تكتبَّت القومُ إذا اجتمعوا، و منه قيل لجماعة الخيل كَتيبة، وكَتبْت البغلة إذا جمعتَ بين شُفْريها بحلْقة أو سيرْ و نحوه، و من ثمَّ سمِّي الخطُّ كتابة لجمع الحروف بعضها إلى بعض كما سمِّي خرْز القربة كتابةً لضمِّ بعض الخُرَز إلى بعض"[3] و عليه، استنادا لتعريفه فالكتابة في معناها اللغوي من الجمع، فبجمع الحروف تتكون الكتابة.

أمَّا اصطلاحا فتعرف الكتابة بأنها "عملية معقدة، في ذاتها كفاءة أو قدرة على تصور الأفكار وتصويرها في حروف وكلمات وتراكيب صحيحة نحوا، وفي أساليب متنوعة المدى والعمق والطلاقة مع عرض تلك الأفكار في وضوح ومعالجتها في تتابع وتتدفق ثم تنقيح الأفكار والتراكيب التي تعرضها بشكل يدعو إلى مزيد من الضبط و التفكير"[4]، تأسيسا على هذا التعريف، فالكتابة ليست مجرد جمع الحروف بعضها لبعض، دون قواعد تضبطها. فهي تحتاج لمراعاة التراكيب النحوية والصرفية الخاصة بالكلمات والجمل، لتتكون بذلك كتابة خاضعة لعملية فكرية مضبوطة.

1-2- تعريف الدِّيوان:

ورد مصطلح الدِّيوان في معجم لسان العرب لابن منظور في باب الدَّال مادة دون؛ إلاَّ أنَّه صرَّح في تعريف الدِّيوان بأنَّه مصطلح فارسي، وذكر أقوال بعض علماء اللغة "والدِّيوان:مجتمع الصحف؛أبو عبيدة:هو فارسي معرَّب؛ابن السكيت: هو بالكسر لا غير، الكسائي:بالفتح لغة مولدة و قد حكاها سيبويه و قال:إنَّما صحَّت الواو في ديوان، و إن كانت بعد الياء و لم تعتل كما اعتلت في سيد، لأنَّ الياء في ديوان غير لازمة، هو فِعَّال من دوَّنتُ "[5]. و عليه فالمصطلح أصله فارسي، يُقصد به"شياطين و جان و (ديوانه) معناه مجنون أي الشياطين حال فيه فقد نقل من الفارسية إلى الآرامية (ديوا) و معناه شيطان ثمَّ نقل على سبيل المجاز ليدُلَّ على كتاب القوانين والحسابات ومجلس العُمَّال الخ".[6] وعليه فالمصطلح تطور عن طريق

آلية المجاز من كونه يعني الشياطين في أصله، فأصبح يُطلق على كتاب القوانين والحساب لسرعتهم و عبقريتهم في ذلك، وتميزهم عن عامة الناس في تحكمهم بآليات الكتابة والحساب.

أمَّا، في المعاجم المعاصرة، ورد تعريفه في المعجم الوسيط بأنَّه: "الدِّيوان : الدَّفتر يُكتب فيه أسماء الجيش وأهل العطاء . و ـ الكتبة . و ـ مكانهم . و ـ مجموع شِعر شاعر . و ـ كل كتابٍ . (ج) دواوين .(مح)."[7]

تأسيسا لما سبق، فالديوان هو الدفتر الذي كانت تُدَّون فيه شؤون الدولة، تماما كما هو الأمر في عصرنا الحالي. أو هو المكان الذي كان يُجتمع فيه الكُتَّاب لكتابة المكاتبات الرسمية للدولة، فبالتالي يُشبه عمل الإدارات العليا المسيرة للدولة في وقتنا، حيث نجد الدواوين مختصة بالرئاسة والوزارة والولاية.

2- نشأة الدِّيوان عند العرب:

يعد عمر بن الخطاب أول من دوَّن الدواوين من العرب في الإسلام، و كان السبب في ذلك، أن "أبا هريرة قدم عليه من البحرين ومعه مال، فلقي عمر، فقال له عمر: ماذا جئت به؟ قال: خمسمائة ألف درهم، فقال عمر: أتدري ما تقول! قال: نعم، مئة ألف درهم، و مئة ألف درهم، ومئة ألف درهم، و مئة ألف درهم، و مئة ألف درهم. فقال عمر: أطيب هو؟ قال: لا أدري. فصعد عمر المنبر، فحمد الله و أثنى عليه، ثمَّ قال: أيها الناس، قد جاءنا مال كثير، فان شئتم كلناه كيلا، و إن شئتم أن نعد عدا. فقام إليه رجل، فقال: يا أمير المؤمنين، قد رأيت هؤلاء الأعاجم يدونون ديوانا لهم. قال: دوّنوا الدواوين"[8]

و يعود سبب نشأة الدِّيوان بالدرجة الأولى لحرص عمر بن الخطاب رضي الله عنه لتوزيع وحفظ الأموال العامة بشكل عادل بين الناس، وحرصا منه على تطبيق مقاصد الدِّين الإسلامي، فأخذ نظام الدِّيوان من الفرس و " طوَّر الأنظمة السائدة في الدَّولة، وأضاف إليها أساليب إدارية متَّبعة في بلاد الفرس، ففي 15هـ فرض على المسلمين الفروض و دوَّن الدواوين، وأعطى العطايا السابقة في الإسلام"[9].

مع تطور الدولة الإسلامية، و إنشاء الديوان من طرف عمر بن الخطاب الذي عُرف فيما بعد باسم ديوان العطاء، ظهرت العديد من الدواوين لكل منها وظيفتها و مهمتها، النوع الذي يهمنا هو ديوان الرسائل الذي بفضله تطورت كتابة الرسائل الديوانية.

2-1- ديوان الرسائل:.

ظهر ديوان الرسائل في العصر الأموي، حيث أدى "اتساع رقعة البلاد،و ازدياد الحاجة إلى المكاتبات و إرسال الأوامر الأميرية ظهور ديوان يُعنى بكتابة ما يأمر به الخليفة، و يُدوَّن بأسلوب أدبي فنّي ما هو مطلوب "[10] بناءً على هذا الكلام، فسبب نشأة ديوان الرسائل يعود لأسباب سياسية، مع توسُّع رقعة الدولة الإسلامية، فكثرت المكاتبات الرسمية لتسيير شؤون الدَّولة الداخلية و الخارجية، فلما " آل الأمر إلى معاوية، فأنشأ ديوان الخاتم وديوان الرسائل،ثمَّ عُرِّبت دواوين الخراج في عهد عبد الملك،فصارت العربية لغة الدَّواوين كلَّها،و كان يليها عرب خُلَّص،أو مستعربون حذقوا العربية،كسالم مولى هشام بن عبد الملك و عبد الحميد بن يحي"[11]. نفهم من تعريب الدَّواوين، أنَّ أصلها فارسي، ثمَّ نُقلت للعربية، و اتخذ خلفاء العرب كُتَّابا من أصل فارسي لكتابة رسائلهم الدِّيوانية، فتعلموا العربية و حذقوا فيها، لذلك عُدَّت الكتابة الدِّيوانية أنها ظهرت بتأثير فارسي؛ لكن سنرى مدى صحة هذا الرأي. "و مما هو جدير بالذكر أنَّ شؤون هذا الدِّيوان كانت بيد العرب أول الأمر، و هذا أمر طبيعي، ثمَّ أخذت تنتقل بالتدريج إلى أيدي " الموالي" أولئك الذين انقطعوا لها، و استطاعوا بلباقتهم الفارسية ـ بعد أن حذقوا اللغة العربية و تمرَّسوا بأساليبها. أن يصلوا حبالهم بحبال الخلفاء و الولاة، كأبي الزَّعيزعة مولى عبد الملك بن مروان، وعبد الله بن المقفع الذي كتب لداود بن علي، وسالم مولى هشام، وابنه عبد الله، و عبد الحميد بن يحي الذي كتب لمروان الثاني و الذي بدئت به الكتابة كما يقولون"[12]

و عليه، فبعدما عرفنا، كيف نشأ ديوان الرسائل في العصر الأموي، و كيف ساهم في ترقية الكتابة الدِّيوانية، نأتي الآن لتعريفها، فكما لاحظنا، يتكون المصطلح من جزأين الكتابة وديوانية من ديوان، و بناءً على هذا، هكذا كان تعريفها:

2-2-تعريف الكتابة الدِّيوانية:

أُطلقت الكتابة الديوانية، على كل ما يصدر من ديوان الرسائل، من رسائل سياسية، ومكاتبات رسمية. حيث يراد بها " الكتب التي تكون بين المملوك والحكام و الأمراء والوُلاَّة و القواد، و بمعنى آخر الرسائل ذات الطابع الرَّسمي، و موضوعات تلك الكتب تتصل بسياسة هؤلاء وأنظمة حكمهم، وتصريف شؤون الدولة وحكامها، وتنظيم العلاقات مع الدول المجاورة. و لأهمية هذه الرسائل السياسية فقد أصبح لها ديوان خاص بها في وقت مبكر، فلذلك نسبت إليه، فسميت بالرسائل الديوانية".[13] والديوانية أو الديواني أي"الرسمي الإداري ـ الذي يصدر

عن دواوين الحكام، و يعنى بأمور الدولة و شئونها السياسية، ولذا يحرص على دقة المعلومات ومراعاة الرسوم المتعارف عليها في المكاتبات ذات الصبغة الرسمية، ومن هذا النوع: العهود والتقاليد والمناشير والفتوحات وانتقال الخلافة والتقليب والتنويه والإحماد و الإذمام و الدعوة إلى الطاعة والحث على الجهاد"[14]

ومما سبق، فيمكننا تعريف الكتابة الدِّيوانية بأنها كل مكاتبة رسمية، صادرة عن ديوان رسائل، فكانت على شكل رسالة سياسية، أو عهود، أو مواثيق. تعددت مواضيعها، غرضها الرئيسي تسيير شؤون الدَّولة الداخلية والخارجية. ومازال هذا النوع من الكتابة موجودا حتى في عصرنا الحالي، تماما كما هو الأمر في المكاتبات الرسمية بين الرؤساء، الصادرة عن ديوان الرئاسة. ما يجب أن ننوه عليه، الدِّيوان فعلا مصطلح فارسي، و نظام الدِّيوان أخذه العرب من الفرس؛ لكن الكتابة الدِّيوانية عرفها العرب قبل اختلاطهم بالفرس فقد عرفوا هذا النوع من الكتابة على شكل رسائل سياسية كاملة العناصر، فبذلك المصطلح يعود فعلا للفرس لكن الكتابة السياسية (الدِّيوانية) عرفها العرب و هم من علموا الموالي إيَّاها، فلا شك إذا أنَّ هذا النوع من الكتابة عربية الأصل.

2-3- دور الموالي الفرس في تطوير الكتابة الدِّيوانية:

ساهم الكُتَّاب الفرس، مساهمة لا يمكن إنكارها في تطوير الكتابة الدِّيوانية، سنبين ذلك من خلال بعض النماذج؛ لكن قبل ذلك يجب أن نتعرف على تعريف الكاتب:

الكاتب : هو الأديب الذي يبلغ مرحلة البراعة و الاحتراف في الصياغة الأسلوبية و الإنشاء الأدبي نثرا .و للفظة " كاتب " معانٍ عند الأمم،منها :

1. عند العبريين:الذي ينسُخ الكتابَ المقدَّس.

2. عند الإغريق:الذي يكتب المرافعات لخصوم القضايا.

3. عند العرب:كاتب الدِّيوان الذي يقوم بمهمة كتابة الرَّسائل. ثمَّ أُطلقت على طبقة المتعلمين،ثمَّ على المحترفين بالكتابة من أدباء و صحفيين".[15]

مصطلح الكُتَّاب ارتبط ارتباطا وثيقا بالرِّسالة الدِّيوانية، لكون الكاتب هو الصانع لهذه الرِّسالة التي لعبت دورا مهما في تسيير شؤون الدَّولة في تلك العصور، حيث كانت مهمة كاتب

الرَّسائل إعلان المراسيم و تحرير الرَّسائل السياسية وختمها بخاتم الخلافة بعد اعتمادها من الخليفة، و مراجعة الرَّسائل في مجلس القضاء للنظر في المظالم، و ختم الأحكام بخاتم الخليفة. وفي بعض الأحيان كان كاتب الرَّسائل يتولَّى مكاتبة الملوك و الأمراء نيابة عن الخليفة و لذلك فقد وجب أن يتحلَّى بسمة العلم، و جزالة الأسلوب "[16].هؤلاء الكُتَّاب طوَّروا الكتابة تطويرا كبيرا إذ اتخذوها مهنة لهم،يجودون فيها ويحسنون، حتى يبلغوا أعلى المراتب وما كان الكاتب منهم مستطيعا أن يتقلَّد ديوان الرسائل إلاَّ إذا أظهر هذه البراعة و أبان عن جمال في كتاباته، و تفنَّ في أسلوبه "[17].فالكاتب لا نقصد أنَّه مجرد ناقل لما يملي عليه الوزير وهو يكتب فقط، قد تجاوز هذا الأمر ليتفرَّد بكتابة الرسائل بكل دقة في اختيار الكلمات المناسبة و المعاني الواضحة،فقد يسبب تغافل منه أو الخطأ و الكتابة بأسلوب غير لائق، في حدوث مشكلة بين ملك الدولة الذي يكتُب له و بين الجهة الموجهة لها الرسالة.

من أشهر الكُتَّاب الفرس عبد الحميد الكاتب، الذي يُقال أن الكتابة بدأت معه، قبل أخذ نماذج عن كتابته، نقدم تعريفا موجزا عنه:

عبد الحميد الكاتب: (132هـ/750م) :

عبد الحميد بن يحي بن سعد العامري ،بالولاء ،المعروف بالكاتب:عالم بالأدب،من أئمة الكُتَّاب. كان جده للعلاء بن وهب العامري،فنسب إلى بني عامر. يضرب به المثل في البلاغة،و عنه أخذ المترسلون،أصله من قيسارية. سكن الشَّام،و اختص بمروان بن محمد آخر ملوك بني أمية في المشرق، و يقال: << فتحت الرسائل بعبد الحميد و ختمت بابن العميد >> و كان يعقوب بن داود، وزير المهدي، يكتب بين يديه ،و عليه تخرَّج. له <<رسائل>> تقع في نحو ألف ورقة، طبع بعضها. و هو أول من أطال الرسائل و استعمل التحميدات في فصول الكتب".[18]

نموذج لرسائل عبد الحميد الكاتب:

ذكر أحمد زكي صفوت رسالة لعبد الحميد بن يحي الكاتب عن مروان بن محمد إلى ابنه عبد الله بن مروان، حين وجَّهه لمحاربة الضحَّاك بن قيس الشَّيْباني الخارجي، رسالة مطولة، اشتملت على أربع و خمسين صفحة، افتتحها ب<< أمَّا بعدُ، فإنَّ أمير المؤمنين ـ عندما أُعتزم عليه، من توجيهك إلى عدوِّ الله الجِلف الجافي الأعرابي المتسكِّع في حَيْرَة الجَهالَة، و ظُلَمِ الفتنة، و مَهَاوِى الهَلَكَةِ، وَ رَعَاعَهِ الذين عاثُوا في أرض الله فسادا..>>[19] ، ثمَّ درج لموضوع الرسالة، في صفحات مطولة، ينصح فيها عبد الله بن مروان بالتحلي بأخلاق الإسلام من ذلك

قوله:" و اعلم أن كل أهوائِك لك عدوٌّ يحاول هلكتك، و يعترض غَفلتك، لأنَّها خدع إبليس، و حبائلِ مكره (...)، و تدارى جندك بالإحسان، و تصون سِرّك بالكتمان، و تُداوىَ حِقدك بالإنصاف (...)، احذرْ تضييعَ رَأْيك، و إهمالك أدبك في مسالك الرضا و الغضب، و اعتوارهما، (...)، و هكذا حتى نهاية الرسالة كُلَّها نصائح لعبد الله بن مروان من أبيه، كتبها له عبد الحميد الكاتب، على شكل رسالة ديوانية، غرضها التوجيه و الإرشاد كيف يتولى الحكم بما يتماشى مع تعاليم الإسلام، و كيف يواجه الظلم و الفساد، و هكذا حتى نهاية الرسالة، اختتمها بعبارة << و السلام عليكم>>.[20]

نموذج من رسائل معاوية و عبد الملك بن مروان:

أغلب كتابات معاوية، موجزة لا تتجاوز بضع أسطر، سنذكر منها رسالته إلى الحسين بن علي:" أما بعدُ، فإنَّه بلغني أنَّك تزوجتَ جَارِيتَك، و تركتَ أكفاءك من قريش، ممن تستحسنه للولد، وَتَمْجُدُ به في الصِّهر، فلا لنفسك نظرتَ، ولا لولدك انتقيت"[21] و كذلك الأمر بالنسبة لكتابات عبد الملك بن مروان، حيث كتب إلى أخيه بشر:" أمَّا بعدُ، فإنَّك أخو أمير المؤمنين دون أُمَيَّة، فانظر المهلب فَولِّه حَرْبَ الأزارقة، فإنَّه سيِّد بَطَل مُجَرَّبٌ، فأَمْدِدْه من أهل الكوفة بثمانية آلاف رجل، و السلام"[22]. هذا النوع من الكتابة الدِّيوانية عُرف بالمراسيم التي تتولَّى أمر التولية وتعيين الخلفاء للحكم، أو شخص لمهمة في الحرب. بذلك تشبه المراسيم الرئاسية أو الجمهورية في وقتنا الحالي. لذلك نرى أنَّه أجاز في هذا النوع من الكتابة، لأنَّها لا تحتاج إسهابا، لكون غرضها محددا و مباشرا، فيمكن اعتباره أمرا لا يمكن رده.

و عليه، من خلال ما سبق، نرى أنَّ الجديد الذي أضافه عبد الحميد للكتابة الدِّيوانية في العصر الأموي هو الإسهاب بدل الإيجاز الذي لحظناه في رسائل معاوية و عبد الملك، أمَّا بالنسبة لعناصر الرسالة فكلاهما اشتملا على مقدمة تُفتتح بها الرسالة بعبارة أمَّا بعد، ثم العرض، ثمَّ خاتمة، تُختتم بالسلام عليكم. فعبد الحميد الكاتب تعلَّم العربية و أجاد فيها؛ حتى عُدَّ أوَّل الكُتَّاب في هذا المجال، فبالتأكيد أنَّه أثَّر في الكتابة الدِّيوانية و أدخل عليها أساليب الفرس في الإسهاب و الإطناب و السجع و غيرها.

3- آراء حول أصل الكتابة الدِّيوانية:

في مستهل الحديث، رأينا كيف بدأت الرسالة السياسية منذ العصر الجاهلي، ثمَّ عُرفت بمصطلح الرسالة الديوانية في العصر الأموي، و رأينا كيف يزخر تراثنا العربي بهذا النوع من

الرسائل التي تلقفها الدارسون بالبحث والتنقيب لمعرفة الحياة السياسية والإدارية في تلك العصور، فاعتبرت بذلك بمثابة مصدر تاريخي وسياسي. وعليه كان للمراسلات المتبادلة بين الخلفاء والولاة، أو بين الأفراد وهؤلاء، كثيرة جدًّا في الأدب العربي بالموازنة بينها وبين الأدب الأوروبي، فلم يكن عند الأوروبيين متخصصون في كتابة الرسائل، و يبرعون في هذا النوع الأدبي، فنجد في الأدب اليوناني و اللاتيني سوى مجموعة رسائل كتبها سيسيرون لابنته، أو لأفراد أسرته أو لأصدقائه[23] ، فيقر يونس عبد العال إذن بأنَّ العرب كانوا سبَّاقين في مجال الرسائل بمختلف أنواعها، عكس العالم الغربي الذي وُجد في تراثهم الرسائلي إلاَّ عدد قليل جدا مقارنة بتراثنا الرسائلي العربي.

أمَّا مصطفى الشكعه فقد صرَّح بأصالة الرسالة الديوانية و أنَّه لا يعود الفضل للموالي في إنشائها بقوله: "لقد عُرفت الرسالة الديوانية إذن في وقت مبكر قبل أن يكتبها عبد الحميد الكاتب أو أستاذه سالم الذي استفاضت الأخبار حول عبقريته في الكتابة العربية التي لم يصل إلينا منها شيء، والتي ألَّحت الأخبار أيضا على أنَّ ثقافته اليونانية كانت السبب الأول في براعته في فن الكتابة (...)، الذي نريد أن ننتهي إليه و أن نؤكده هو أن بلاغة الرسالة العربية الدِّيوانية فيها و الإخوانية بلاغة أصيلة غير مستوردة، يشهد بذلك الرسائل الديوانية التي كانت تصدر عن دواوين الولاة الأمويين إلى الخليفة أو بعضهم إلى البعض الآخر"[24] فسَّر رأيه هذا بأنَّ الرسالة الديوانية، كانت موجودة قبل عبد الحميد الكاتب الذي يزعم البعض أنَّ الكتابة بدأت به؛ صحيح كان للموالي دور في ترقية هذا النوع من الرسائل لكنَّها وُجدت قبلهم بجميع رسومها السياسية و رأينا ذلك من خلال رسائل العصر الأموي مثل رسائل معاوية بن سفيان، إلاَّ أنَّ الجديد الذي أضافه الموالي هو الإطالة و الإسهاب، فبعدما كانت الرسالة السياسية لا تتجاوز بضع أسطر أصبحت تُكتب في صفحات عديدة.

و معنى ذلك أن كتابة الرسائل السياسية الرسمية نشأت في حجر العرب، هذا ما أثبته الجهشياري في كتابه الوزراء و الكُتَّاب، حيث قدم العديد من أسماء من كانوا يلون الديوانين: ديوان الرسائل وديوان الخراج، وهي إثبات تدل دلالة قاطعة على أن من نهضوا بالكتابة السياسية في هذا العصر إنَّما هم العرب، و ظلوا على ذلك طويلا، حتى أوشك القرن الأول للهجرة على الزوال، فشاركهم الأجانب في صناعة الرسائل، ذكر منهم سالم الذي تخرج على يديه عبد الحميد الكاتب الفارسي الأصل[25].

رفض شوقي ضيف رأي المستشرقين الذين يزعمون أن العرب استعاروا كتابتهم السياسية الفنية أو نثرهم السياسي الفني من لدن الفرس، فأكد بذلك أن العرب لم يستعيروا من الفرس ولا غيرهم نثرهم، إلاَّ أنهم مع مرور الزمن أخذوا يتأثرون في نثرهم و شعرهم من الفرس و غيرهم[26]. وعليه، يؤكد على حقيقة تأثر الرسائل الديوانية بأسلوب الموالي الفرس، و هذا أمر طبيعي، فثقافة الكاتب بالتأكيد ستظهر في رسائله. يسرد شوقي ضيف:" و لعلنا لا نبالغ إن قلنا إنَّ المادة الفارسية و الأخلاقية المترجمة كانت من أهم المؤثرات في رقي الكتابة الديوانية و تطورها، و حقًّا أن هذا التأثير بدأ منذ عبد الحميد الكاتب و لكنه لم يبلغ أشده إلاَّ في هذا العصر إذ اتسع نقل الآداب الفارسية وكل ما أُثر عن ملوك الفرس ووزرائهم من عهود ووصايا ورسائل إلى العمال والولاة"[27]. فهو بذلك يُقِر بالدور الذي أدَّاه الموالي في ترقية الرسالة الديوانية و تطويرها بداية من عبد الحميد الكاتب؛ لكن هذا الأمر كما رأينا رفضه الجهشياري لكون الكُتَّاب العجم تعلموا على أيدي العرب.

تأسيسا لما سبق، لا يمكننا إنكار وجود الرسالة الديوانية قبل الموالي، فرأينا نماذج من رسائل العصر الأموي من خلال النماذج التي اخترناها بجميع عناصرها و رسومها السياسية كاملة؛ إلاَّ أن الوزراء العرب كانوا مشغولين بأمور دولتهم، فاتخذوا كُتَّابا من الأعاجم ليكتبوا لهم، فتمكنوا من اللغة العربية وأجادوا في كتابة الرسائل الديوانية منهم عبد الحميد الكاتب الذي تعلَّم من سالم، فكان من أول الكُتَّاب الذي أطالوا في الرسالة الديوانية بعدما كانت موجزة في عهد الرسول صلى الله عليه و سلم. و عليه يمكن القول أنَّ الرسالة الديوانية تأثرت بأسلوب و ثقافة الموالي الفرس؛ لكن لم تكن من صنعهم فلقد وُجدت قبلهم.

خاتمة:

و في ختام هذه الدراسة المقارنة للكتابة الدِّيوانية بين الفرس و العرب، توصلنا إلى نتائج أبرزها أن لكتابة الدِّيوانية، وُجدت منذ عهد الرسول صلى الله عليه و سلم، فكانت على شكل رسائل غرضها سياسي، يُرسلها عليه السلام لملوك الأمم الأخرى؛ لكنَّها لم تُعرف باسم الرسالة الدِّيوانية، وإن اشتملت على خصائصها، حتى جاء العصر الأموي، فظهرت الكِتابة الدِّيوانية بهذا المصطلح مع إنشاء ديوان الرسائل من طرف معاوية بن سفيان، الذي أصبح يتكفَّل بإنشاء هذا النوع من الكتابة و تخصيص كُتَّاب لها.

ورغم أن الكتابة الدِّيوانية ظهرت مع بداية كتابة الرسائل، على أيدي العرب منذ عهده صلى الله عليه و سلم، ثمَّ مع تطور نظام الدولة و شؤونها، تكفلَّ بكتابتها كُتَّاب ذو أصل فارسي،

تعلموا العربية و أجادوا كتابة الرسائل وطوّروا فيها. فالكتابة الدِّيوانية، مزيج بين الإبداع العربي والتأثير الفارسي.

1 الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر: الحيوان، تح: عبد السلام محمد هارون،دار مصطفى البابي الحلبي وأبنائه، القاهرة-مصر، ط2، 1965م، 69/1.

[2] شوقي ضيف: الفن و مذاهبه في النثر العربي، مكتبة الدراسات الأدبية، دار المعارف، القاهرة-مصر، ط10، (د.ت)، ص12.

[3] القلقشندي أبو العباس شهاب الدين أحمد بن علي: صبح الأعشى في كتابة الإنشا، دار الكتب المصرية، (د.ط)، القاهرة-مصر، 1430ه/1922م، ص51.

[4] إبراهيم علي ربابعة، مهارة الكتابة و نماذج تعليمها، www.alukah.net، تاريخ النشر: 2016/4/2م، تاريخ الاطلاع: 2022/09/21م، الساعة: 8:47.

[5] ابن منظور محمد بن مكرم :لسان العرب،(مادة دون)،دار صادر،بيروت،مج13،ص166.

[6]طوبيا العنيسي الحلبي اللّبناني: تفسير الألفاظ الدَّخيلة في اللُّغة العربية مع ذكر أصلها بحروفه،مكتبة العرب،بيروت-لبنان، ط02، 1932م،ص30.

[7]إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية،مادة(د و ن)، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة-مصر، ط4، 2004م،ص305.

[8] الجهشياري أبو عبدالله محمد بن عبدوس: كتاب الوزراء و الكتاب، دار الفكر الحديث، بيروت-لبنان، (د.ط)، 1988، ص17.

[9] حسان حلاق: دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية، بيروت-لبنان، ط01، 1409ه/1989م، ص31.

[10] محمد التونجي : المعجم المفصَّل في الأدب، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط02، 1419ه/1999م، 358/1.

[11] أحمد محمد الحوفي،أدب السياسة في العصر الأموي،دار القلم،بيروت-لبنان (د.ط)،(د.ت)،ص452.

[12] محمد نبيه حجاب: بلاغة الكتاب في العصر العباسي دراسة تحليلية نقدية لتطور الأساليب، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط02، 1406ه/1986م، ص55.

[13] ينظر: حسين بيوض: الرسائل السياسية في العصر العباسي الأول، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، (د.ط) ،1996م، ص05.

[14] محمد يونس عبد العال: في النثر العربي قضايا و فنون ونصوص، الشركة المصرية العالمية للنشر ـ لونجمان، القاهرة-مصر، (د.ط)، (د.ت)، ص162.

[15]محمد التنوجي: المعجم المفصَّل في الأدب، 819/1.

[16] أمينة بيطار: تاريخ العصر العبَّاسي ،جامعة دمشق، (د.ط)، (د.ت) ،ص325.

[17] حسين نصَّار: نشأة الكتابة الفنيةً في الأدب العربي، ص75.

[18] محمد علي جمَّاز:معجم الأدباء من العصر الجاهلي حتى سنة2002، دار الكتب العلمية،بيروت، لبنان، ط1424،01ه/2003م، 359/3 .

[19] أحمد زكي صفوت: جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة العصر الأموي، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، (د.ط)، (د.ت)، 406/2.

[20] ينظر: نفسه، ص 420/419/406.

[21] نفسه: ص22.

[22] أحمد زكي صفوت: جمهرة رسائل العرب،135/2.

[23] ينظر: محمد يونس عبد العال: في النثر العربي قضايا و فنون و نصوص، 262.

[24] مصطفى الشكعه: الأدب في موكب الحضارة الإسلامية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط02، 1974م،209/2.

[25] ينظر: شوقي ضيف: النثر الفني و مذاهبه، ص103.

[26] ينظر: نفسه: ص104.

[27] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر العبَّاسي الأوَّل،دار المعارف، القاهرة-مصر، ط08، (د.ت)،467/3.

قائمة المراجع:

1- إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية،مكتبة الشروق الدولية، القاهرة-مصر، ط 4، 1425ه/2004م.

2- إبراهيم علي ربابعة، مهارة الكتابة و نماذج تعليمها، www.alukah.net، تاريخ النشر: 2016/40/02م، تاريخ الاطلاع: 2022/09/21م، الساعة: 8:47.

3- ابن منظور محمد بن مكرم:لسان العرب، دار صادر،بيروت-لبنان، (د.ط)،(د.ت)..

4- أحمد زكي صفوت: جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة العصر الأموي، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، (د.ط)، (د.ت).

5- أحمد محمد الحوفى،أدب السياسة في العصر الأموي،دار القلم،بيروت-لبنان (د.ط)،(د.ت).

6- أمينة بيطار: تاريخ العصر العبَّاسي ،جامعة دمشق، سوريا، (د.ط)، (د.ت).

7- الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر: الحيوان، تح: عبد السلام محمد هارون،دار مصطفى البابي الحلبي وأبنائه، القاهرة-مصر، ط02، 1384ه/1965م.

8- الجهشياري أبو عبدالله محمد بن عبدوس: كتاب الوزراء و الكتاب، دار الفكر الحديث، بيروت-لبنان، (د.ط)، 1988.

9- حسان حلاق: دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية، بيروت-لبنان، ط01، 1409ه/1989م.

10- حسين بيوض: الرسائل السياسية في العصر العباسي الأول، منشورات وزارة الثقافة، دمشق-سوريا، (د.ط)،1996م.

11- حسين نصَّار: نشأة الكتابة الفنيةً في الأدب العربي، مكتبة الثقافة الدِّينية، دار المعارف، القاهرة-مصر، ط01، 2002م.

12- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر العبَّاسي الأوَّل، دار المعارف، القاهرة-مصر ، ط08، (د.ت).

13- شوقي ضيف: الفن و مذاهبه في النثر العربي، مكتبة الدراسات الأدبية، دار المعارف، القاهرة-مصر، ط10، (د.ت).
14- طوبيا العنيسي الحلبي اللِّبناني:تفسير الألفاظ الدَّخيلة في اللُّغة العربية مع ذكر أصلها بحروفه،مكتبة العرب، بيروت-لبنان، ط02، 1932م.
15- القلقشندي أبو العباس شهاب الدين أحمد بن علي: صبح الأعشى في كتابة الإنشا، دار الكتب المصرية،القاهرة-مصر، (د.ط)، 1430ه/1922م.
16- محمد التونجي : المعجم المفصَّل في الأدب، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط02، 1419ه/1999م.
17- محمد علي جمَّاز:معجم الأدباء من العصر الجاهلي حتى سنة2002، دار الكتب العلمية،بيروت-لبنان، ط1424،01ه/2003م.
18- محمد نبيه حجاب: بلاغة الكتاب في العصر العباسي دراسة تحليلية نقدية لتطور الأساليب، جامعة أم القرى، مكة المكرمة-السعودية، ط02، 1406ه/1986م.
19- محمد يونس عبد العال: في النثر العربي قضايا و فنون ونصوص، الشركة المصرية العالمية للنشر- لونجمان،القاهرة-مصر، (د.ط)، (د.ت).
20- مصطفى الشكعه: الأدب في موكب الحضارة الإسلامية، دار الكتاب اللبناني، بيروت-لبنان، ط02، 1974م.